

القيم الأخلاقية في القرآن الكريم
The Moral Values in the Qur'an



د. عبد القادر الشايط*

Abdelkader_chait@hotmail.com

جامعة محمد الأول وجدة (المغرب)

تاريخ الاستلام: 2020/12/27 تاريخ القبول 2021/07/05 تاريخ النشر 2021/12/31



ملخص

كثرت توجيهات القرآن والسنة في الحث على التمسك بالقيم الأخلاقية الفاضلة، والعمل على تنميتها، بأحسن الصور والأفعال، لأن الاهتمام بمنظومة القيم الإسلامية له عظيم الأثر في تماسك المجتمع، وبناء الأمم والشعوب، وإن الانحراف عنها يعد أحد أهم أسباب مشكلات شؤون الحياة المختلفة التي يشهدها العالم اليوم. ومن هنا، تأتي ضرورة الاهتمام بالقيم الأخلاقية التي وردت فيها العديد من النصوص الدينية، والتي رغب فيها الإسلام، ووقف عليها علماء التفسير بالدراسة والتحليل، لتوظيفها في المجال الإنساني، والانتفاع بها في عمارة الأرض وإصلاحها.

الكلمات المفتاحية: القيم الأخلاقية، منظومة القيم، تماسك المجتمع، علماء التفسير.

Abstract

It is noticeable that the global, Arab and Islamic community suffers from a significant decline in the level of values, which contributed to various social problems, hence the importance of researching Islamic moral values, because they are the path to stability, security and development, and this can only be done by referring to books on the interpretation of the Qur'an and extracting values Of which.

* المؤلف المراسل

مقدمة

يعد اهتمام الإسلام بالقيم الفاضلة من أهم العوامل التي حفظت الأمة العربية من التدهور والانحلال الخلقي الذي كانت تعاني منه الأمم الأخرى قديما وحديثا لأن للقيم أثرا كبيرا في معظم مجالات الحياة، إذ تقوم عليها نهضة وتطور الأمم والشعوب، وبالقيم تتماسك الأنظمة الاجتماعية لدى الأمم، كما أنها تساعد على الاحتفاظ بهويتها وذاتيتها، وبالقيم يرتبط مستقبلها واستقرارها.

وعلى الرغم من كثرة اهتمام علماء المسلمين بمادة علوم القرآن قديما، إلا أنّ اهتمامهم بوضع الدراسات المتخصصة في إبراز منظومة القيم الإسلامية في المصطلح القرآني قليل جدا، وإن كانت جهودهم لا تخلو من إشارات ونظرات إلى مقاصد القرآن العامة، في حين جعل بعض المفسرين المتأخرين موضوع القيم أساسا وأصلا من أصول التفسير، التي بحسن توظيفها يكتسب الفرد الكثير من الصفات والقيم والأخلاق والمبادئ السامية، ويقود إلى بناء مجتمع قوي ومتآلف.

دوافع اختيار موضوع البحث

تقع وراء اختياري لموضوع هذا البحث دوافع ذاتية، وأخرى موضوعية:

الدوافع الذاتية:

- انطلقت فكرة هذا البحث " القيم الأخلاقية في القرآن الكريم" من اقتناعي الشخصي بأهمية القيم الإسلامية، ودورها في بناء الإنسان؛ وذلك لمصدرها الرباني، إضافة إلى حلولها الناجعة للأزمات التي تمر بها المجتمعات العربية والغربية اليوم، نتيجة اختيار المنظومة القيمية.

الأسباب الموضوعية:

- يعتبر مجال القيم الأخلاقية موضوعا رئيسا في تراث العلوم الإسلامية، ومن هذا المنطلق، اخترت أن أسهم بهذا البحث تعزيزا للقيم التضامنية، وتحقيقا للعدالة الاجتماعية المتفتحة، وتقويةً للتنمية المستدامة المنشودة في الشريعة الإسلامية.

- حاجة الناس في وقتنا الحاضر إلى معرفة القيم الإسلامية، ودورها في إصلاح الفرد واستقرار المجتمع.

إشكالية الدراسة وتساؤلاتها:

على الرغم من أن مدارس التفسير القديمة منها والحديثة نجت منها إصلاحيا في شتى مناحيه، وأظهرت ما في القرآن الكريم من سنن الكون الاجتماعية، وعالجت مشاكل الأمة الإسلامية خاصة ومشاكل الأمم عامة، اعتمادا على التوجيه القرآني، إلا أننا نجد موضوع القيم في التراث التفسيري الإسلامي لم يأخذ حقه من الدراسة، للاستفادة منه، وتأسيس منظومة قيمية إسلامية، تأخذ من روح الإسلام وتصورات المعرفة والوجدانية.

وعلى ضوء ما سبق نطرح الإشكالية التالية:

- ما مدى مساهمة التفسير في إصلاح النظام القيمي للأمة الإسلامية، وإعادة الروح الجماعية للمسلمين، والتنظير لمنظومة قيمية إسلامية؟

وتتفرع عن الإشكالية الأسئلة الفرعية التالية:

- ما هي مصادر القيم الإسلامية وما أنواعها؟

- ما مفهوم القيم الأخلاقية في الإسلام وما أثرها في إصلاح الفرد والمجتمع؟

- هل مدرسة التفسير عملت على إصلاح منظومة القيم الفردية والجماعية؟

فرضيات الدراسة:

- التفسير يحوي منظومة قيمية، تستوعب حاجات الأفراد والجماعات، وتشكل هوية جماعية مشتركة، وتخدم الفرد والمجتمع على حد سواء.

- إن الثروة التفسيرية القيمية الأخلاقية الهائلة لعلماء الإسلام يمكنها الإسهام في إصلاح الفرد وصالح المجتمع واستقراره.

أهمية البحث وأهدافه:

- تحديد مفهوم " القيم والأخلاق " من منظور شرعي، مع بيان مصادرها وأنواعها.

- ترسيخ القيم الإسلامية الفاضلة في عقيدة المسلمين.

- بيان الآثار السلبية لتخلي المسلمين عن القيم والأخلاق الإسلامية.

- تأصيل منظومة القيم الأخلاقية من منظور إسلامي بعيداً عن التبعية المطلقة للفلسفات الوضعية، والدراسات السيكولوجية.

منهج البحث:

إن طبيعة موضوع الدراسة تدعو إلى التوفيق بين مجموعة من المناهج، ومنها نذكر: المنهج الوصفي، المنهج التحليلي، المنهج المقارن.

المبحث الأول: القيم الأخلاقية والاجتماعية في القرآن الكريم

المطلب الأول: مفهوم القيم ومصادرها في الإسلام

الفرع الأول: مفهوم القيم لغة واصطلاحاً

مفهوم القيم في اللغة:

القيم في التراث الإسلامي كانت لها جذور واضحة المعالم، فقد كان العرب قبل الإسلام يشتهرون بقيم حميدة يعترفون بها: كالشجاعة والكرم والتضحية والعفو وغيرها... وعند نزول القرآن الكريم على النبي محمد صلى الله عليه وسلم كانت القيم وتهذيب الأخلاق من الأمور التي لها الصدارة في المبادئ الأساسية التي أولاهها الدين الإسلامي أهمية بالغة بعد الإيمان بالله ورسوله ورسالته السماوية، وذلك لبناء مجتمع إسلامي تسوده الفضيلة ومكارم الأخلاق⁽¹⁾.

استخدمت مفردة "قيمة" منذ القدم وأريد بها معان متعددة متباينة الاختلاف، وما فتى الباحثون عن مدلول هذه الكلمة يذكرون لنا الأصول اللغوية التي اشتقت منها ويبينون لنا مداليلها، حيث عرفوها بقولهم:

القيمة: واحدة القيم، وأصله الواو، لأنه مقام الشيء. والقيمة: ثمن الشيء بالتقويم، تقول: تقاموه فيما بينهم، وإذا انقاد الشيء واستمرت طريقته فقد استقام لوجهه، ويقال: كم قامت ناقتك؟ أي: كم بلغت؟ وقد قامت الأمة مائة دينار: أي بلغت قيمتها مائة دينار، وكم قامت أمتك؟ أي: بلغت⁽²⁾.

فقيمة الشيء في اللغة: قدره، وقيمة المتاع ثمنه⁽³⁾. والقيمة الثمن الذي يقاوم به المتاع، جاء في المصباح المنير: أقيمت الشيء وقومته فقام، بمعنى استقام، قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ﴾ [الكهف: 77]. واستقام بمعنى قوم في لغة أهل مكة.

يقولون: استقمت المتاع أي: قومته، وحددت للسلعة ثمنها⁽⁴⁾.

والقيم: جمع قامات، وقيم كعنب وهو قويم، وقوام كشداد: حسن القامة... والقيمة بالكسر واحدة القيم، وماله قيمة إذا لم يدم على شيء، وقوّمت السلعة واستقمته: ثمنته، واستقام: اعتدل، وقومته: عدلته فهو قويم ومستقيم وما أقومه شاذ، والقوام كحساب: العدل وما يعاش به، وبالضم: داء في قوائم الشاء، وبالكسر: نظام الأمر وعماده وملاكه⁽⁵⁾.

وهو أي: القيم: اسم لما يُقوم به الشيء، أي يثبت كالعماد والسناد: لما يعمد ويسند إليه... والإقامة في المكان: الثبات. وإقامة الشيء: توفية حقه... وتقويم الشيء: تثقيفه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4].

وذلك إشارة إلى ما خص به الإنسان من بين الحيوان من العقل والفهم، وانتصاب القامة الدالة على استيلائه على كل ما في العالم⁽⁶⁾.

مفهوم القيم في الاصطلاح:

إن مصطلح القيم مصطلح حديث بالنسبة إلى ثقافتنا الإسلامية، ولعله مترجم عن اللغات الأجنبية بمعانيه المختلفة، وإن المعاجم اللغوية العربية الحديثة تقدمه لنا كما ورد في الثقافة الغربية فتارة بفلسفة القيم وتارة أخرى بنظرية القيم.

وإن الدراسات المتعددة قد أرست مفهوم علم القيم ضمن موضوعات علم النفس، وعلم الاجتماع، والاقتصاد، والأخلاق... لأن موضوع القيم من المفاهيم الضرورية والجوهرية لدراسة المجتمع، بحيث تحدد درجة رقي وتحضر المجتمعات، وقد لقيت اهتماما كبيرا منذ زمن بعيد على يد العديد من علماء الاجتماع وعلماء النفس والاقتصاد والسياسة، وقد عرفت القيم في الاصطلاح بعدة تعريفات، منها:

القيم: هي مستوى أو مقياس أو معيار نحكم بمقتضاه ونقيس به ونحدد على أساسه المرغوب فيه أو الرغوب عنه⁽⁷⁾.

أن القيم هي صفات، أو مثل، أو قواعد... تقام عليها الحياة البشرية فتكون بها حياة إنسانية، وتعاير وتُعايرُ بها النظم والأفعال؛ لتُعرف قيمتها الإنسانية من خلال ما تتمثله منها⁽⁸⁾.

وعرفها البعض بأنها: مجموعة من القواعد التي تقوم عليها الحياة الإنسانية، وتختلف بها عن الحياة الحيوانية⁽⁹⁾.

كما عرفها بعض علماء الفكر الإسلامي، بأنها:

حكمٌ يصدره الإنسانُ على شيءٍ ما، مهتدياً بمجموعةِ المبادئِ والمعاييرِ التي ارتضاها الشَّرعُ، محدداً المرغوب فيه والمرغوب عنه من السلوك⁽¹⁰⁾.

ومن العبارات الجامعة للتعريف أنها: مجموعة من المعايير والأحكام النابعة من تصورات أساسية عن الكون والحياة والإنسان والإله، كما صورها الإسلام، تتكون لدى الفرد والمجتمع من خلال التفاعل مع المواقف والخبرات الفردية والاجتماعية، بحيث تمكنه من اختيار أهداف وتوجهات لحياته تتلاءم مع قدراته وإمكانياته، وتتجسد من خلال الاتجاهات أو الاهتمامات أو السلوك اللفظي أو العلمي بصورة مباشرة وغير مباشرة⁽¹¹⁾.

وعلى هذا الأساس نجد أن علم القيم في الثقافة الإسلامية، يعني تلك الفضائل والآداب المستخرجة من أخلاقيات القرآن الكريم، وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، وتراث الأمة الإسلامية، والتي عبر عنها الدارسون المسلمون بمصطلحات مختلفة ومتنوعة، تارة باسم المبادئ أو الأسس، وتارة باسم المقومات أو الثوابت، وأخرى باسم الإسلام أو العقيدة...⁽¹²⁾. وإن كان مصطلح الفضيلة والآداب العامة هو المصطلح المشهور الذي استخدمه الدارسون للدلالة على موضوع القيم.

إن المفهوم الديني ينظر إلى القيم على أنها عملية تفضيل تقوم على الاستقامة والاعتدال، وتنطلق أساساً من مصادر أحكام الشريعة الإسلامية، ومعاييرها ومبادئها، وهي تحدد المرغوب فيه حالاً وتأمراً به، والمرغوب عنه حراماً خبيثاً وتنهى عنه. وتعمل كدوافع أو مثيرات لسلوك الفرد والمجتمع نحو خلق الشخصية السوية المتكاملة وتنميتها، وذلك بما يكفل للإنسان السعادة الأبدية⁽¹³⁾.

ويتبين من خلال ما سبق تعدد تعريفات القيم إلا أن التعريف الجامع الذي يمكن الأخذ به هو أنها مجموع الصفات السلوكية العقائدية والأخلاقية، التي توجه السلوك، وهي التي تصنع نسيج الشخصية، وتبنى على تصور محدد للكون والخالق، وللإنسان والعقل والعلم والمعرفة.

وأما تأثرت بالمنهج القرآني، وبمبادئه ومثله، وقد ذكرت تحت مسميات مختلفة، مثل: المبادئ، الأخلاق، والفضائل...

الفرع الثاني: مصادر القيم وأنواعها

تنحصر مصادر القيم في مصدرين اثنين: مصدر علوي وردت قيمه على الإنسان عن طريق الشرائع السماوية ومنها الإسلام، ومصدر بشري يدع قيمه رواد من المفكرين والفاعلين في حقول السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية، وتركيبها الشعوب تارة وترفضها تارة أخرى. وتلتقي قيم المصدرين في أغلب القيم المعروفة، ولكن المصدرين يختلفان في المعيارية والمصادقية، فمعيارية القيم في الشرائع السماوية، وخاصة منها القيم المتعلقة بطبيعة الإنسان الأصلية والثابتة مبنية على ما وضعه الله في الإنسان من مؤهلات بدنية ونفسية وفطرية، وحيث يستحيل في حق المصدر الإلهي الخطأ أو العبث، فإن مصداقيته قطعية الثبوت. أما المعيار البشري للقيم فهو نسبي بطبيعته قابل للصواب والخطأ، قد يتخلله أحيانا الهوى أو التقدير الخاطئ أو النظرة الضيقة أو المصالح الخاصة كما قد تعثره النفعية والنزاعات الأنانية والغرائز الذاتية الفردية أو الجماعية، لذلك يتسم المعيار البشري بالتغير والتقلب مما يجعل مصداقيته نسبية فقط⁽¹⁴⁾.

وقد صنف محمد تقي المدرسي الفضائل والقيم الإسلامية إلى خمسة أصناف، انطلاقاً من تصنيفاته العملية للأخلاق في كتابه المجتمع الإسلامي منطلقاته وأهدافه: الأخلاق الفردية: وتشمل القيم التالية: الاستقامة، العفة، كظم الغيظ، الصدق، الأمانة، التواضع، البخل، الإسراف.

الأخلاق الأسرية: وتمثل في تلك القيم التي تربط الآباء بالأبناء، والأزواج والأقارب والأرحام. وهي: طاعة الوالدين، الإحسان إليهما، شكرهما، مصاحبتهما بالمعروف، المودة، الإنفاق.

الأخلاق الاجتماعية: وتشمل القيم التالية: تحريم الغش والظلم، وجوب الوفاء بالعهد، العفو والإحسان والكرم، تحريم الاعتداء على الأنفس.

الأخلاق الدينية: وتشمل الفضائل التالية: طاعة الله وشكره، التوكل على الله، الخوف من

سطوة الله، الأمل في رحمة الله، التوبة من الذنب.

أخلاق الدولة: وتشمل القيم والفضائل التي تربط الحاكم بالمحكوم، مثل: العدالة، الحرية، المساواة، إقرار النظام، صون الأموال، التشاور، الدفاع، مساعدة المستضعفين، وحدة الكلمة، الرقابة والوفاء بالعهد⁽¹⁵⁾.

وإن الهدف من القيم الفاضلة يتمثل في: "إعداد الإنسان إلى ممارسة المصالح وتوزيع الأعمال، على نمط يكفل التساوي بين الأفراد في الحقوق والواجبات، كما يطلق مفهوم الأخلاق على أعمال الإنسان وسلوكه الإرادي الذي يتحلى في تلك القيم والفضائل الأخلاقية ومضاداتها من الرذائل، مثل الصدق والكذب، والمحبة والكراهية، البخل والكرم، الإخاء والحقد، الإيثار والأنانية، الرأفة والتعنت، البر والتسلط، الأمانة والخيانة... فكل هاته الصفات والأعمال دليل على السلوك الأخلاقي للإنسان"⁽¹⁶⁾. ذلك أن الفطرة البشرية إذا جبلت على شيء وتطبعت عليه أصاب منها ما شاء سواء كان خلقا حسنا أو سيئا.

والملاحظ أن المجتمع العالمي والعربي والإسلامي يعاني من تخلخل البناء المعياري القيمي، واضطراب في بنيته التربوية، من هنا تأتي أهمية البحث في القيم الأخلاقية الإسلامية، لأنه بحث عن الذات العربية الإسلامية في غير انغلاق، لبنائها بناء ذاتيا متميزا، كي تكون قادرة على العطاء والإبداع، في عصر غدت فيه كل المجتمعات تعمل على تأكيد شخصيتها.

وهو ما نسعى إليه من خلال الوقوف على منظومة القيم في القرآن الكريم واستنباط أنواعها وخصائصها، وإبراز دور القيم الإسلامية في إعطاء صورة للمجتمع المسلم، وتكوين شخصية الفرد المسلم وملائمتها المتميزة، وبيان فعاليتها في صياغة الحياة وأهدافها في ظل التقدم العلمي والتقني المعاصر.

وإزاء هذا فإنه لا بد أن ندرك أهمية وجود منظومة من القيم المتميزة بالتعدد والمرونة، والخاضعة للتغير المضبوط، في ظل التقدم العلمي والتقني المذهل، الذي غدا يمس كل مكون من مكونات حياة الإنسان، وبالرغم من مساهماته فإنه لم يستطع أن يحل مشكلات حياة الإنسان المعاصرة، لأننا نرى اضطرابات اجتماعية واقتصادية وسياسية، هذا إلى جانب تفاقم مشكلات العمل، والصراع بين الفقراء والأغنياء، وجدة المناوشات العالمية بين القوى المختلفة،

وكذلك المنازعات المحلية، إلى جانب مشكلات أخرى كثيرة⁽¹⁷⁾. فالقيم هي الأساس لبناء مجتمع متميز، لأن فقدان التربية على القيم التي تبني عليها شخصية الإنسان، يفقد المجتمع جوهره وروحته، ويجعله يعاني من قصور في تأكيد ذاته وهويته الثقافية.

وبالتالي نجد أن المنهج القرآني يربي المؤمن على القيم الأخلاقية والاجتماعية، من خلال الممارسة العملية للعبادات بصفة عامة ومنها عبادة الإنفاق والصدقة، التي يتجلى لها هذا الأثر الازدواجي، الذي يستهدف به الباري تطهير النفس أخلاقياً، من خلال تنقيتها من شوائب الحرص الشديد على جمع المال، وإبعاد رذائل البخل، والشح، والطمع، كما يعزز المنهج القرآني من خلال الزكاة قيم التكافل، ومؤازرة الفقراء ومواساتهم، وسد حاجة المعوزين والبؤساء، والمحرومين اجتماعياً، ومن تم العمل على تقوية المجتمع وتثبيته واستقراره، لتسود به قيم: التضحية والإخلاص والمناصرة والعفة والإيثار... وهذه القيم كفيلة بإزاحة كل الرذائل التي تعشعش داخل المجتمع الذي تتفاوت فيه الطبقة بين أفرادها⁽¹⁸⁾.

فتكون هذه الروابط الاجتماعية القوية، سببا في تشارك أفراد المجتمع المسلم بعضهم بعضا في أفراحهم وأحزانهم، واستشعار كل واحد منهم أن لكل فرد في هذا المجتمع حقا عليه، فينعكس ذلك على تقوية أواصر المجتمع ويصونه من التشتت، وينمي فيه القيم التربوية الأخلاقية التضامنية، مما يحقق الاطمئنان والسكينة.

الفرع الثالث: تداخل القيم الأخلاقية والاجتماعية بالمنهج القرآني

إن موضوع التربية على القيم الأخلاقية والاجتماعية في ضوء القرآن الكريم يشكل مدخلا مهما، يمكن من خلاله رصد واقع المسلمين، وتوجهاتهم الحضارية لتحديد الأولويات، وضبط السلوكات، واختيار التصورات، لأن معاني القيمة في القرآن تشكل مرجعية شرعية أساسية ومعيارية، يفضلها يصبح المسلم كيانا متميزا في مجالات الحياة المتعددة، ولن يتحقق الأمة الإسلام العزة والكرامة، والأمن والسيادة إلا بتطبيق شرع الله على عباده، والحكم بينهم بما أنزل الله، ونبد ما خالف ذلك من قوانين وضعية، ونُظُم بشرية، مخالفة لشرع الله القويم، وغرس القيم الفاضلة التي تؤسس السعادة في الدنيا والآخرة.

وانطلاقا من تحديد مفهوم القيمة في المجتمع الإسلامي، نجد أن القيم الأخلاقية لا انفصام

بينها وبين القيم الاجتماعية بالمنهج القرآني، وبالتالي فإن العقيدة والأخلاق صنوان لا ينفصلان في هذا المنهج، ضمن المعيار المحدد للسلوك الإنساني في الإطار الاجتماعي من منطلق القرآن الكريم، والسنة النبوية، اللذان يحددان مجموعة من القيم الاجتماعية⁽¹⁹⁾.

كما نجد أن "القيم المستنبطة من القرآن حولت الأخلاق من كونها علما فلسفيا مرتبطا بالانفعالات النفسية للإنسان إلى قيم اجتماعية مرتبطة بمروءة الإنسان بعد أن أسقطت عليها حكم الخيرية أو الشرية، معتمدة الخيرية ونافية الشرية ليكون التعبير عنها بمكارم الأخلاق. وقد استمدت القيم القرآنية تلك المكارم الراقية السامية من البيانات السابقة"⁽²⁰⁾، "لأن تاريخ الحضارة البشرية حافل بالشرائع الأخلاقية والمعايير الاجتماعية المتباينة، إلا أن الدراسات الحديثة قد كشفت عن وجود تقارب كبير بين هذه الشرائع."⁽²¹⁾ ثم جاء الإسلام متمما لها، وسائرا على نهجها، وهذب بعضها، وذلك بعد أن تشرذمت وتفرقت وأهملت بين الأمم والحضارات."⁽²²⁾ ويؤكد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»⁽²³⁾. وقيل: لأنه امتثل تأديب الله تعالى إيَّاه"⁽²⁴⁾.

وهذا يدل على أن التشريع الإسلامي جاء كاملا شاملا لكل جوانب الحياة الدنيا والآخرة، وجاء أيضا مكتملا ومتمما لما خلقت منه الرسالات السابقة، كطغيان المادية في اليهودية، وطغيان الروحية في المسيحية، وتعادل الجانبين في توازن واعتدال في الإسلام،"⁽²⁵⁾ حيث أعطى كلا منهما ما يستحقه من الرعاية والعناية، فهو يدعو الإنسان إلى العمل والكسب في الدنيا، كما يدعو في الوقت نفسه إلى العمل لطلب الآخرة، قال تعالى: ﴿وَأَنْتَعِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 77].

وقد اقتضت شريعة الله - عز وجل - نظاما اجتماعيا متكاملًا يشمل كل الجوانب الإنسانية: الروحية، والمادية، والوجدانية النفسية، والعقلية، والأخلاقية لتسير الحياة على أكمل وجه، ويتحمل فيها الإنسان مسؤولية أمانة الاستخلاف التي أنيطت به، ويحقق الفعل الحضاري، ويبرز الشهود الحضاري لهذه الأمة على سائر الأمم، قال تعالى: ﴿وَالِي تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا

فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿60﴾ [هود: 60]، فمن المعاني التي فسر بها لفظ "استعمركم" خلقكم لعمارته⁽²⁶⁾، وجعلكم عمارها⁽²⁷⁾، واتخذكم عمارا⁽²⁸⁾، وأهمكم عمارتها من الحرت والغرس وحفر الأنهار وغيرها⁽²⁹⁾، وأقدركم على عمارتها لاستثمار ما فيها، وهياكم للاستفادة بما عليها وفيها وحولها من منافع وخيرات⁽³⁰⁾.

وإن رسالة العمارة لا تنهض إلا بالتعاون بين الناس جميعا، لذلك جعل الله النفس الإنسانية تميل إلى الاجتماع، و"الإنسان بحكم هذه النزعة لا يستطيع أن يعيش بمفرده ولا يستطيع الحياة منفصلا عن المجتمع البشري الذي يعيش في محيطه، ولا عن الحياة والأحداث الجارية بل تجده يسعى على الدوام إلى الاندماج في حياة مجتمعه، وإلى بناء علاقات مختلفة مع أفراد وجماعته، وإلى التفاعل مع حياة وثقافة مجتمعه، وإلى التعاون مع أفراد في تحصيل معاشه"⁽³¹⁾.

فالإنسان لا يمكنه أن يفي بكل حاجاته مفردا، من مأكل وملبس ومسكن وتعلم وعمل وعلاج بل واستمرار جنسه إلا بالعيش في مجموعة بشرية، كما يوضح ذلك ابن خلدون (ت808هـ): "الاجتماع الإنسانيّ ضروري ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدني بالطبع، أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران، وبيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء وهداه إلى التماسه بفطرته، وما ركب فيه من القدرة على تحصيله إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء... ويستحيل أن تفي بذلك كُله أو ببعضه فُدرة الواحد، فلا بد من اجتماع القُدَرِ الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون"⁽³²⁾.

وإن خاصية النزعة إلى الاجتماع أو إلى العمران التي أشار إليها المؤرخ الاجتماعي ابن خلدون تعتبر من أهم الخصائص التي اختص الله بها الإنسان دون غيره من المخلوقات، "لأنه خلق خلقه لا قوام له إلا بإنسان بعضهم ببعض، ولهذا قيل الإنسان مدني بالطبع، من حيث لا قوام لبعضهم إلا ببعض، ولا يمكنه أن يقوم بجميع أسبابه، وقيل سمي بذلك لأنه لا يأنس بكل ما يألّفه"⁽³³⁾. ويبدو أن هذه الخاصية الاجتماعية هي السمة الغالبة في تفسير ابن عاشور حيث نجده يؤصل لعلم الاجتماع البشري في مباحث تفسيرية كثيرة، إلى جانب ثلة من علماء الغرب الإسلامي.

لقد أفرد القرآن الكريم للمسألة الحضارية حيزاً مهماً من خلال استعراض تاريخ الأقاليم والشعوب التي عمرت الأرض وأسست الحضارات، والمآلات التي انتهت إليها التجمعات البشرية التي خالفت منهج خالقها، وأرشد إلى أن فقه هذه السنن الحضارية وتسخيرها تمثل الثوابت التي تتحكم في قيام الحضارات، وأن كل إغفال وانفصال عن السنن الإلهية سيؤدي لا محالة إلى إرباك حركة الإنسان الحضارية، وإلى انحرافها عن المسار التي خلقت من أجله، الأمر الذي يفضي حتماً إلى الإفساد في الأرض.

لذلك اتجه كتاب الله بجملة من الأوامر والنواهي ذات الصبغة الأخلاقية إلى مختلف الأفراد، سعياً منه في إصلاح أخلاق الأفراد، والارتقاء بالروح الإنسانية وتنقيتها مما يشوبها ويعكر صفوها، والسمو بها عن صغائر الأمور، وتحمل أمانة عمارة الأرض على نحو ما يقرره المنهج الإلهي، فخطبهم بما فردا فرداً، "وهذه الأوامر والنواهي تتعلق بالكليات الضرورية التي تتوقف حياة المجتمع الإسلامي عليها كل التوقف، وبدونها يتعذر العمران، ويفشو الانحلال، ويضيع الأمن ويفسد النظام"⁽³⁴⁾، فالله سبحانه وتعالى عليم خبير بأحوال العباد، يعلم ما يُحَقِّق لهم السعادة وما يجلب لهم الشقاء، لذلك جاءت الشريعة الإسلامية، بأحكام أخلاقية زجرية على شكل أوامر ونواه، كما يؤكد ذلك الإمام ابن حزم (ت456هـ): "الأخلاق الإسلامية تقوم على مجموعة من الأوامر والنواهي التي تتضمنها الشريعة الإسلامية."⁽³⁵⁾

فقد جاء القرآن الكريم بما يتوافق ويتلاءم مع فطرة الإنسان التي فطره الله عليها، يوازن بين متطلّبات الروح والجسد، ويبين الخير والشر، وكل خلق مفض إليه ويوضح الشر وينهى عن كل خلق موصل إليه، فجاء بذلك يراعي مصلحة الفرد في تناسق وشمول بديع مع مصلحة المجتمع، يقول ابن حزم معبراً عن ذلك: "فكما أنه مصدر للأحكام الشرعية فهو مصدر لمكارم الأخلاق، حيث يبين الخير والشر، ويبين الفضيلة والرذيلة والسبل التي تفضي إلى كل منهما، كما يبين العواقب المترتبة على ذلك."⁽³⁶⁾ قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: 2].

ولعل أبرز ما تثمره حركة الترقى الروحي والخلقي التي يمارسها الإنسان وفق قيم الوحي

الارتقاء بالحياة الاجتماعية إلى أعلى مستويات التوافق والانسجام، والقوة والتماسك، والاندماج، والعطاء المثمر، من هنا اكتست عملية التزقي الروحي والخلقي أهمية قصوى في توجيه الفعل الحضاري وإثرائه، وبسبب ذلك أولاه الوحي عناية خاصة، وعده هدفا أساسيا وأصيلا من أهداف الفعل الحضاري، وبعده قويا من أبعاده⁽³⁷⁾.

ونظرا لأهمية منظومة القيم العليا التي لها فعل في أنماط السلوك الاجتماعي العامة، وفي قيام الحضارة الإنسانية فقد تنبه إليه الكثير من المفسرين القدامى كابن عطية، والقرطبي، وأبي بكر ابن العربي، الذين ذكروا العديد من "القيم الأخلاقية التي تتناول السلوك الاجتماعي مثل الصدق، الحلم، الأمانة، العفة، التسامح، العفو، التواضع، الوفاء"⁽³⁸⁾ في تفاسيرهم، لكن سرعان ما تطور الأمر عند المحدثين كالشيخ الطاهر بن عاشور، والمكي الناصري، وابن باديس، الذين أخذوا يفسرون الآية القرآنية ويستنبطون منها إشارات اجتماعية قوية، فأخذت تفاسيرهم طابعا أخلاقيا واجتماعيا، مكنّ الدارسين للعلوم الاجتماعية الرجوع إليها والاستفادة منها، باعتبارها تراثا للأمة الإسلامية، يكشف اللثام عما في القرآن من أسرار وكنوز صالحة للإنسانية كلها.

المبحث الثاني: القيم الأخلاقية في الإسلام وأثرها في إصلاح الفرد والمجتمع

المطلب الأول: مفهوم القيم الأخلاقية وأنواعها في الإسلام

الفرع الأول: مفهوم الأخلاق لغة واصطلاحا

أولا: معنى الأخلاق في اللغة

الأخلاق جمع خُلُق، والخُلُق - بضم اللام وسكونها - هو الدِّين والطبع والسجية والمروءة. وحقيقته أنه صورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخُلُق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها. وقد جاءت كلمة أخلاق في كتب اللغة يراد بها: الطبع والسجية، والمروءة والدين وهي مأخوذة من مادة (خ ل ق) التي تدل على تقدير الشيء.

يقول ابن فارس (ت395هـ): ومن هذا المعنى "أي تقدير الشيء الخُلُق، وهي السَّجِيَّة، لأن صاحبه قد قدر عليه. وَفُلَانٌ خَلِيقٌ بكذا، وَأَخْلِقُ بِهِ، أَي مَّا أَخْلَقْتُهُ، أَي هو ممن يقدر فيه ذلك. وَالخُلُقُ: النَّصِيبُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ قُدِّرَ لِكُلِّ أَحَدٍ نَصِيبُهُ."⁽³⁹⁾

ثانياً: معنى الأخلاق في الاصطلاح

عرف العلماء الأخلاق بتعريفات كثيرة لا يتسع المجال لذكرها لكن أغلبها تتفق في كونها عبارة عن مجموعة المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني، لكنهم اختلفوا في مسألة التأصيل لها، فمنهم من أرجعها إلى دوافع طبيعية غريزية بحتة، ومنهم من أخضعها لقوانين ومبادئ وشرائع مجتمعية، ومنهم من أرجعها إلى الدين، لتنظيم حياة الإنسان، وتحديد علاقته بغيره على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه ومن تلك التعريفات:

قال الجاحظ (ت255هـ): "إن الخلق هو حال النفس، بما يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار. والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد، كالسخاء قد يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ولا عمل، وكالشجاعة والحلم والعفة والعدل وغيرها من الأخلاق المحمودة"⁽⁴⁰⁾.

أما الإمام ابن قيم الجوزية فقد أفرد فصلاً كاملاً للأخلاق في كتابه الفوائد، ولم يضع لها تعريفاً محدداً، وإنما عرفها بالمثال، وقسمها إلى قسمين هما:

الأول: الأخلاق المذمومة.

الثاني: الأخلاق الفاضلة.

وأرجع كلا القسمين إلى أصوله فقال: أصل الأخلاق المذمومة كلها الكبر والمهانة والدناءة، وأصل الأخلاق المحمودة كلها الخشوع وعلو الهمة... وأما الأخلاق الفاضلة كالصبر والشجاعة والعدل والمروءة والعفة والصيانة والجلود والحلم والعفو والصفح والاحتيمال والإيثار وعزة النفس عن الدناءات والتواضع والقناعة والصدق والأخلاق والمكافأة على الإحسان بمثله أو أفضل والتغافل عن زلات الناس وترك الانشغال بما لا يعنيه وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة ونحو ذلك، فكلها ناشئة عن الخشوع وعلو الهمة."⁽⁴¹⁾ ثم أشار - رحمه الله - إلى أن للأخلاق حداً متى جاوزته صارت عُذواناً ومتى قصرت عنه كان نقصاً ومهانة... فعلى سبيل المثال للشجاعة حد إذا جاوزته صارت تهوراً، ومتى نقصت عنه صارت جبناً وخوراً."⁽⁴²⁾

فالأخلاق إذن هي القوى والسجايا النفسية الراسخة، التي تصدر عنها أنماط السلوك الإنساني الخارجي، من خلال إرادة حرة، وهي تمثل الصورة الباطنية للإنسان، ما أن الخلق يمثل

الصورة الظاهرة وكلاهما يكون حسنا أو قبيحا. والأصل في الخلق أن يكون اختياريا يكسب بالتخليق والجهد والمثابرة على التزام جانب التسامي، ولذلك يمدح به الإنسان أو يذم وثاب عليه أو يعاقب، بخلاف الخلق فهو فطرة مقسومة محدودة، لا مدخل لأحد فيها ولا اختيار، ولا يتعلق بما لذاتها مدح أو ذم، ولا يترتب عليها ثواب أو عقاب⁽⁴³⁾.

الفرع الثاني: أهمية الأخلاق في حياة المجتمع

للأخلاق أهمية بالغة في حياة المجتمع، فهي الدعامة الأولى لبناء المجتمع المتماسك الركين، وصالح أي مجتمع أو فساده مرتبط بصالح الأخلاق أو فساده⁽⁴⁴⁾. وتشكل الأخلاق ضابطا اجتماعيا له تأثيره القوي على سلوك الأفراد وتماسك المجتمعات واستقرارها⁽⁴⁵⁾.

ولا يستطيع أي مجتمع من المجتمعات أن يعيش أفرادها متفاهمين متعاونين سعداء، ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة، فمكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية، ومتى فقدت الأخلاق التي هي الوسيط الذي لا بد منه لانسجام الإنسان مع أخيه الإنسان، تفكك أفراد المجتمع وتصارعوا وتناهبوا، ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار والدمار⁽⁴⁶⁾، ولا شك أن كثرة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في موضوع الأخلاق يدل على أهميتها، فهي تتبوأ المنزلة السامية والدرجة الرفيعة من التشريع الإسلامي، ولقد شهد التاريخ على أن صالح أي مجتمع أو فساده مرتبط بصالح الأخلاق وفسادها.

وقد شهد القرآن الكريم على أن فقدان الأخلاق الاجتماعية، وضياع القيم الفاضلة، وشيوع الرذيلة، كان سببا في هلاك الأقيام السابقة ومن هنا تظهر أهمية العنصر الأخلاقي في تأثيره على السلوك المجتمعي، فصالح المجتمع بصالح الفرد، وفساده بفساده، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117].

ولما كانت الأخلاق الحسنة هي المطلوبة شرعا، وهي المرغوب فيها في السلوك الإنساني، نظرا لميل الإنسان بالطبيعة إلى القيمة الإيجابية⁽⁴⁷⁾، فقد تعود الناس على هذا السلوك، وطلبوه تدريبا وتربية، حتى اعتادت إرادتهم على قيم الأخلاق الفاضلة، وهو ما يستدعي تجسيد الأخلاق في هذه القيم الأخلاقية الرفيعة، التي هي عبارة عن المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني التي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان وتحديد علاقته بغيره، على نحو يحقق الغاية

من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه" (48).

لقد جاءت الشريعة الإسلامية لتنظيم شؤون العباد وتحقيق مصالحهم وفق قواعد وضوابط أخلاقية حددها الإسلام، وإن أعظم ما بنى عليه الإسلام دعوته إلى مكارم الأخلاق وتهذيبها، والعناية بتربية النفس وإكمالها وتدريبها على متابعة الهدى والإرشاد الذي يشهد العقل السليم بحقيقته وصلاحه ونفعه" (49). "وعلى هذا نجد أن العنصر الأخلاقي في المنهج القرآني ركيزة شاملة لكل السلوك البشري، فإذا عدنا إلى أوامر القرآن الكريم ونواحيه نجد أن الإيمان والعقيدة لا يتحققان إلا من خلال العمل بهما، باعتبارها أوامر صادرة من الله سبحانه، والأوامر الصادرة من الله سبحانه توجب الأسس الأخلاقية طاعتها، لا لكونها ظاهرة لأساس أخلاقي، ولكن باعتبار كونها طاعة لمن تجب طاعته" (50). لذلك فقد كان الإصلاح الأخلاقي أساساً من أسس بناء حضارة تقود إلى التمدن والرفي.

فالأخلاق تمثل ذلك السلوك العملي الذي تتحقق به إنسانية الإنسان، وتتم به سعادة الناس في إطار التعاون والتآزر، وينعم فيه المجتمع بقيم التضامن والتكافل، مما يحفز الناس إلى الالتزام بها، وإذا فقدت الأخلاق لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد، ويلحق الناس الضيق والحرج، فالأخلاق هي الأساس لبناء المجتمعات الإنسانية إسلامية كانت أو غير إسلامية، ويقرر ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ (3)﴾ [العصر: 1-3]، "فالعمل الصالح المدعم بالتواصي بالحق، والتواصي بالصبر في مواجهة المغريات والتحديات من شأنه أن يبني مجتمعاً محصناً لا تنال منه عوامل التردّي والانحطاط، وليس ابتلاء الأمم والحضارات كامناً في ضعف إمكاناتها المادية أو منجزاتها العلمية، إنما في قيمتها الخلقية التي تسودها وتتحلّى بها" (51).

إن أهمية علم الأخلاق في الإسلام جعلت بعض المنشغلين بالعلوم الإسلامية ولا سيما علوم القرآن يركزون عليه، ويلفتون الانتباه إليه، وقد توجهت عناية أعلام التفسير إلى استقصاء الآيات ذات الحمولة الأخلاقية، وجمعها وتصنيفها، لإصلاح أوضاع الأمة تربوياً واجتماعياً وسياسياً وحضارياً.

فبالإضافة إلى ما ورد في تفاسيرهم من إشارات أخلاقية، نجد بعضهم أفرد كتباً خاصة للحديث عن الأخلاق كابن حيان الأندلسي صاحب كتاب "أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم" وعنه يُخبرنا ابن خبير الإشبيلي (ت575هـ): "كتاب أَخْلَاقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِابْنِ حَيَّانِ اخْتِصَّارَ الشَّيْخِ الْإِمَامِ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ الْوَلِيدِ الْفَهْرِيِّ الطَّرُوشِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، حَدَّثَنِي بِهِ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ أَخْبَرَنِي بِهِ شَيْخَنَا الْإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ الطَّرُوشِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بِهِ وَبِالأَصْلِ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الْمُفِيدِ الْحَافِظِ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ الْخَاصِبَةِ وَلَمْ يَزِدْ ابْنُ الْعَرَبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى هَذَا فِي سَنَدِ الأَصْلِ." (52)، وقد بذل فيه غاية جهده في خدمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمساهمة في حفظها، وكذلك معرفة ما كان عليه النبي من الخلق الكريم وما كان متحلياً به من السمات، وبيان ذلك للناس للاقتداء بهديه والتخلق بأخلاقه والاقْتِباسَ بِنُورِهِ، واستنباط الأحكام والمعاني الشرعية من سيرته، لإصلاح النفوس وتهذيبها وإصلاح تدين العباد، وإحداث انقلاب سريع في نفوس المؤمنين والمؤمنات.

إن المجتمع الإسلامي له أخلاقه التي تضبط وتحدد السلوك، بمعنى أن له بناءه المعياري، الذي ينبع في الأساس من المصدرين الأساسيين: القرآن والسنة المطهرة، فالقرآن بما أوتي من مكارم الأخلاق وتجسدت في شخص الرسول الكريم وترجمت في أقواله وأفعاله هو المصدر الأساسي المعتمد للقيم في المجتمع الإسلامي. (53) والأخلاق بذلك هي صورة المجتمع، ومقياس نهضته في سلم الرقي، لأنها تعد الضابط والمعيار الموجه الأساسي للسلوك الفردي والاجتماعي، بما تتحقق أفضل حياة للفرد والمجتمع، ويعد ترسيخها في واقع المجتمعات البشرية، الوسيلة الأمثل لتكوين الجيل الصالح، وصياغة الشخصية الإيجابية المؤثرة في المجتمع المسلم.

لقد اهتم الإسلام اهتماماً كبيراً بموضوع الأخلاق لأنها أمر لا بد منه لدوام الحياة الاجتماعية، بل جعلها جوهر الرسائل السماوية، فالأخلاق الفاضلة ضرورة ملحة لإقامة الحياة السعيدة في كل مجتمع، وعلى الأمة الإسلامية أن تقوم على الأسس الأخلاقية التي حددها القرآن وبينها النبي صلى الله عليه وسلم واستنبطها أهل التفسير، وإن إهمال الجانب الأخلاقي يؤذن بهلاك الأمة وتشتت أفرادها، وعلى الأمة الإسلامية أن تتدارك نفسها حتى لا تقع فيما وقع فيه غيرها، فيحق عليها العذاب.

الفرع الثالث: الأخلاق الاجتماعية في المنهج القرآني

إن اهتمام المنهج القرآني بالجانب الأخلاقي يؤكد أن الأخلاق ركيزة أساسية في الإسلام، فهي "روح الرسالة الإسلامية، وأن النظام الإسلامي التشريعي يعد صورة مجسمة لهذه الروح"⁽⁵⁴⁾، وهذا كله يبرز أن المنظومة الأخلاقية الإسلامية هي أكثر سعة وشمولا وانغرازا وتوغلا في كيان الإنسان، وهي أكثر ثراء واستيعابا من أي منظومة أخلاقية وضعية وأن الالتزام بها يعني التحلق والتدين والعبادة في آن واحد، وكل ذلك يجلب الرضا والاطمئنان"⁽⁵⁵⁾، كما أنها تمثل الأسس الثابتة التي تبنى عليها عملية الإصلاح في جميع المجالات.

لذلك نجد أن الشريعة الإسلامية ألغت كل ما كان سيئا بالمجتمع الجاهلي، وأخذت بمنهج الإصلاح القرآني، وتجلت قيم هذا المنهج بجلاء في المجتمعين المكّي والمدني، فاعتادت نفوسهم على قيم الأخلاق الفاضلة، ولقد وصل المجتمع المسلم في صدره الأول قمة الكمال التي لا يمكن أن يصل إليها بشر، وفي ظله وتحت وطأته سعدت الأمة بالطمأنينة، والعدل والاستقرار، والسعادة، وأعزها بعد ذل، وعلمها بعد جهل، وجمعها بعد فرقة وحرب، وتآخت في ظله بعد عداوة وشحناء، وعلى هذا الأساس بني مجتمع فاضل تسوده المحبة، والإيثار، والمساواة... ثم انحدر المجتمع الإسلامي عن هذه القمة لما أعرض عن كتاب الله وهديه، وما زال في هذا الانحدار حتى وصل وكاد أن يصل في هذا العصر إلى درجة قد تعيده إلى جاهليته الأولى أو أشد.

وكما أصلح القرآن الكريم المجتمع الذي نزل فيه وما بعده من المجتمعات المتجددة التي أخذت بهديه، فهو كفيل بأن يصلح المجتمعات المعاصرة، ويعالج القضايا المتجددة، ويحل مشكلات الحضارة الإنسانية، وسيظل المنهج القرآني على اختلاف الأزمان والأجيال الدواء لكل داء، والحل لكل مشكلة، والعصمة من كل ضلال⁽⁵⁶⁾. ومن أنكر هذا فقد كذب التاريخ ونفى الواقع، ووجد نعمة الله وتنكر لكلام مولاه حيث قال سبحانه في معرض تعظيم كتابه: ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89]، ومن أوصاف الكتاب الذي هو موضوع البيان أنه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، وأنه أيضا: ﴿شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82]، وفي الآية دليل على

أن في القرآن آيات يشتفى بها، فهو المنهج الوحيد الكفيل بإنقاذ الأمة الإسلامية من كل المآزق التي وقعت فيها، وإخراجها من الظلمات التي أحاطت بها من كل جانب، قال الطاهر ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية: "أن القرآن كله شفاءً ورحمة للمؤمنين ويزيد خسارة للكافرين، لأن كل آية من القرآن من أمره ونهيهِ ومواعظه وقصصه وأمثاله ووعدده ووعدده، كل آية من ذلك مشتملة على هديٍّ وصلاحٍ حالٍ للمؤمنين المتبعين، ومشتملة بضد ذلك على ما يزيد غيظ المستمرين على الظلم"⁽⁵⁷⁾.

فلقد احتوى القرآن الكريم على رسم متكامل لصورة المجتمع الفاضل وذلك بما حواه من سياسة الإصلاح لكل مناحي الحياة، فهو منهج أبدي يناسب كل الظروف، غير محدود بزمن ولا بمكان وإنما هو منهج لكل البشر في كل الأرض حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

فالمنهج القرآني يستهدف تثبيت أسس القيم الأخلاقية في السلوك البشري انطلاقاً من مجموعة من القواعد والضوابط التي حددها الإسلام والمتجلية في الأوامر والنواهي المبثوثة في آي القرآن، والتي تعتبر مصدراً لأحكام الشريعة ولمكارم الأخلاق، فجاء يبين الخير والشر، ويبين الفضيلة والرذيلة والسبل التي تفضي إلى كل منهما، كما يبين العواقب المترتبة على كل جنوح عنها، حيث ورد في القرآن الكريم من الفضائل والتعاليم الخلقية ووصايا الخير الكثير، ويبين ذلك ابن حزم الأندلسي بقوله: "فكما أن القرآن مصدر للأحكام الشرعية فهو مصدر لمكارم الأخلاق، حيث يبين الخير والشر، ويبين الفضيلة والرذيلة والسبل التي تفضي إلى كل منهما، كما يبين العواقب المترتبة على ذلك، وورد فيه من أصول الأخلاق والفضائل والتعاليم الخلقية، والوصايا الحكيمة الخير الكثير"⁽⁵⁸⁾.

ووضح ذلك قائلا: "الأخلاق الإسلامية تتمايز عن تلك التي تبنتها الأديان الأخرى والفلسفات المختلفة في أن الأخلاق الإسلامية لم تكن غايتها اللذة- وإن لم تنكرها- ولا السعادة الدنيوية- وإن لم تنكر مشروعيتها- بل فردوس الآخرة بواسطة السلوك الخلقى القويم الذي يحقق المنفعة العامة الدنيوية مع الموازنة بين مطالب الروح ومطالب الجسد ونبد الأتانية والتفرقة. ومن ثم لم يكن تأثر فلاسفة الإسلام بالفكر اليوناني يبطل توفر المسلمين على ينبوع الأخلاق والفضائل [القرآن والسنة النبوية الشريفة]"⁽⁵⁹⁾.

ولقد اهتم الإسلام بالأخلاق لأنها قاعدة أساسية لدوام الحياة الاجتماعية وتقدمها من الناحيتين المادية والمعنوية، فالإنسان بحاجة ماسة إلى نظام خلقي يحقق للمجتمع حاجته الاجتماعية، ويحول دون تفككه وانتهياره، لذلك جعل النظام الاجتماعي الإسلامي مصدراً يرجع إليه في الحكم الأخلاقي كي لا تتحكم فيها الأهواء والشهوات والعادات والتقاليد، وجعل مقياساً تقاس به الأخلاق، ولم يهمل النظام الاجتماعي الإسلامي الأخلاق بل ميزها عما سواها، وميز السلوك الأخلاقي عن سائر أنواع السلوك الإنساني، ولم يدخل في مفردات الأخلاق ما ليس منها، وجعل لها عاصم يردعها ويرجعها إلى الصواب، وهذا العاصم هو القرآن الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقد بين القرآن مكارم الأخلاق ومنافعها، ومساوئ الأخلاق ومضارها، وبين السبيل للتخلي عن هذه، والتحلي بتلك، مما يحصل به الفلاح بتزكية النفس، والسلامة من الخيبة بتدسيته، وبذلك يكون الإسلام قد "كفى المسلم مؤنة البحث والاستبطاء، فقد فصل الأخلاق بنوعيتها، وما على المسلم إلا أن يعرض نفسه على الأخلاق بنوعيتها، ليعرف موضعها منها، ثم يعمل جاهداً، لتكون أخلاقه أخلاقاً إسلامية حقاً"⁽⁶⁰⁾.

قال المفسر ابن باديس: "جاء القرآن مبيناً للأخلاق الفاسدة، وذاكراً سوء أثرها، وقبح مغبتها، مبيناً كذلك الأخلاق الصحيحة، وعظيم نفعها وحسن عاقبتها، فهذا شفاؤه للنفوس والعقول، وهو راجع إلى تصحيح العقائد، وتقويم الأخلاق، وبهما سلامة الأرواح وكما لها، وعليها قوام الهيئة الاجتماعية وانتظامها"⁽⁶¹⁾. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَّاهَا (9)﴾ [الشمس: 7-10]. وقد ذكر الطاهر بن عاشور أصل الزكاة الواردة في الآية كما في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 150] فقال شارحاً أصل الزكاة: "إنها اسم مصدر زكى المشدد، إذا طهر النفس من المذمات"⁽⁶²⁾. ومنها التزكية وهي "تطهير النفس مشتقة وهي من الزكاة أي النماء، وذلك لأن في أصل حلقة النفوس كمالات وطهارات تعترضها أرجاس ناشئة عن ضلال أو تضليل، فتهذيب النفوس وتقويتها يزيد بها من ذلك الخير المودع فيها"⁽⁶³⁾، ثم استشهد بحديث النبي

صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»⁽⁶⁴⁾.

ويرى الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره أن تركية النفس هي بذل العبد استطاعته في تطهير نفسه وتركيتها، لأن في ذلك تحقيق الفلاح للمؤمنين وخيبة للمشركين، وفي هذا المعنى يقول: "أفلق من زكى نفسه واتبع ما ألهمه الله من التقوى، وخاب من اختار الفجور بعد أن ألهم التمييز بين الأمرين بالإدراك والإرشاد الإلهي"⁽⁶⁵⁾.

وقال القرطبي في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ أي "قد أفلق من زكى نفسه بطاعة الله، وصالح الأعمال، وخاب من دس نفسه في المعاصي"⁽⁶⁶⁾، وتركية النفس تكون بتربيتها على الطاعات وهجرانها للمعاصي كما قال ابن باديس في تفسيره: "وتربية النفوس تكون بالتخلية عن الرذائل، والتخلية بالفضائل"⁽⁶⁷⁾.

فإذا كان إصلاح البدن يتم بمعالجته بالحمية والدواء، فإن إصلاح النفس يكون بمعالجتها بالتوبة الصادقة، وإفساد البدن بتناول ما يحدث به الضرر، وإفساد النفس بمقارفة المعاصي والذنوب، هكذا تعتبر النفوس بالأبدان في باب الصلاح والفساد، في كثير من الأحوال، غير أن الاعتناء بالنفوس أهم وألزم لأن خطرهما أكبر وأعظم"⁽⁶⁸⁾. ولأن صلاح الإنسان وفساده إنما يقاسان بصلاح نفسه وفسادها، ورقبه وانحطاطه باعتبار رقي نفسه وانحطاطها، وما فلاحه إلا بركائها، وما خبيته إلا بخبثها... فصلاح النفس هو صلاح الفرد، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع، والعناية الشرعية متوجهة كلها إلى إصلاح النفوس، إما مباشرة وإما بواسطة"⁽⁶⁹⁾، كما بين ذلك صلى الله عليه وسلم في حديثه: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْعَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»⁽⁷⁰⁾.

فإذا صلحت النفس الإنسانية صلح الفرد، وصلاح الفرد هو صلاح المجتمع، فإذا صلح المجتمع عم الخير والعدل والتكافل وكل ما شرعه الله تعالى لعباده، وتبطلها وفسادها يختل نظام الاجتماع ويعود إلى الانحلال والباطل والظلم والسوء الذي نهى الله عنه.

فمباشرة الأعمال الطيبة تساعد على تقويم الأخلاق وتركيتها، وتخليصها من أمراض الأخلاق الرذيلة، ومن الأعمال المرغبة في اكتساب القيم الأخلاقية الفاضلة: القيام بشتى الطاعات من عبادات ومعاملات التي تزكي النفس وتسمو بالروح، والحرص على العيش وسط المجتمع الطيب

والبعد عن رفقة السوء، حتى تحدث في النفس راحة وسكينة ووقار.

قال الإمام الغزالي (ت505هـ) في معرض حديثه عن أساليب الارتقاء بالنفس وتزكيتها: "الطريق إلى تزكية النفس اعتياد الأفعال الصادرة من النفوس الزاكية الكاملة حتى إذا صار ذلك معتادا بالتكرار مع تقارب الزمان حدث منها هيئة للنفس راسخة تقتضي تلك الأفعال وتتقاضاه، بحيث يصير ذلك له بالعادة كالطبع فيخف عليه ما كان يستثقله من الخير فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق التواضع وغلب عليه التكبر فطريقه في المجاهدة أن يواظب على أفعال المتواضعين مواظبة دائمة."⁽⁷¹⁾

وقد بين القرآن الكريم منهج الإنسان في الأرض وكل ما يرتبط بشؤون حياته فيما بينه وبين ذاته، "وبينه وبين أهله، وفيما بينه وبين أقاربه، وفيما بينه وبين جيرانه، وفيما بينه وبين من تربطه به علاقات الحياة ومصالحها، وشؤون الجماعات وشؤون الأمم فيما بينها، كل هذه الشؤون سبل وطرق في الحياة تسلك ويسار عليها للبلوغ إلى الغايات المقصودة منها مما به صلاح الفرد والمجتمع"⁽⁷²⁾.

قال الطاهر بن عاشور: "إذا بلغت الأمة إلى غاية حلبة مكارم الأخلاق على جمهورها، زكت نفوسها، وأثمرت غروسها وزال موحشها وبدا مأنوسها، فحينئذ يسود فيها الأمن وتنصرف عقولها إلى الأعمال النافعة وتسهل الألفة بين جماعتها فتكون عاقبة ذلك كله تعقلا ورفاهية وإنصافا، فينتظم المعاش"⁽⁷³⁾.

وهكذا نجد أن القرآن الكريم "دعا إلى التحلي بالأخلاق الكريمة دعوة عامة، وفصل القول في كليهما، والحكمة في هذا البيان المفصل، توضيح معاني الأخلاق وتحديداتها، لئلا يختلف الناس فيها وتتدخل الأهواء في تحديد المراد منها، ومن مظاهر رحمة الله بعباده أن بين لهم ما يتقون وما يأخذون وما يتركون"⁽⁷⁴⁾.

فالأخلاق الإسلامية إذن "ليست رأيا بشريا ولا نظاما وضعيا، وإنما هي مستمدة من شرع رب البشر، سواء منها ما أثبتته الشرع ابتداء أو أقره مما تعارف عليه الناس، وحتى ما لم ينص عليه الشرع من محاسن الأخلاق، فريائته في اندراجه تحت أصل شرعي عام: "ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن" فهي ريائية المصدر، وريائية الهدف والغاية والقصد، غير أن أصول

الأخلاق وأمهاتها مستمدة من الشرع، ويتبعي المسلم بها رضا الله. ⁽⁷⁵⁾ وهذا ما يجعل المنهج الأخلاقي الرباني الذي جاء به الإسلام هو الأصلح مطلقا ليكون أساسا للسلوك الإنساني.

الفرع الرابع: نماذج من القيم الأخلاقية الإسلامية في كتب التفسير

إن المنهج القرآني جعل للقيم الأخلاقية مكانة عظيمة في الإسلام، إذ لا تخلو سورة من سوره، بل ولا تكاد تخلو آية من آياته من ذكر قيمة من القيم الإسلامية الفاضلة، ولهذا نجد أن علماء التفسير أولوا موضوع القيم اهتماما كبيرا في تفاسيرهم، بحيث لا تخلو صفحة من الصفحات من ترديد لمصطلحات ذات مدلولات قيمية أخلاقية فردية وجماعية، ومن ذلك:

- الآيات الآمرة بقيمة القسط:

• ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: 29]. أي "بالعدل في العبادات والمعاملات، لا بالظلم والجور، فالقسط والعدل أمر عظيم، وركيزة أساسية من ركائز هذا الدين، فلا بد من مراعاة العدل الاجتماعي بين مختلف طبقات المجتمع، وإعطاء كل ذي حق حقه، فالناس كلهم في حاجة مشتركة إلى بعضهم البعض، وما من أحد إلا وله حقوق على غيره، ولغيره حقوق عليه، ولهذا الحاجة المشتركة والحقوق المترتبة كان الاجتماع والتعاون ضروريين لحياة المجتمع البشري واطراد نظامه. وقيام كل واحد من أفراد المجتمع بما عليه من حقوق نحو غيره هو الذي يسد تلك الحاجة المشتركة بين الناس" ⁽⁷⁶⁾، وكل إنسان مأخوذ بأن يعدل، لأن إقامة العدل مطلب إنساني، إذ أن الحياة لا تستقيم لأحد إلا بإقامة القسط.

- ومن الآيات التي دعت إلى قيمة البذل والعطاء (الإنفاق الإلزامي والتطوعي)

• ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 29]، فقد حدد كتاب الله المبادئ الأساسية التي يجب أن ترعاها الدولة الإسلامية، لكي يكون المجتمع الإسلامي في انسجام تام مع التوجه الإلهي العام، ومن بين هذه المبادئ: "إيتاء الزكاة، وتوثيق رباط المحبة والتكافل بين عباد الله، بحيث يكون المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية على درجة كبيرة من الإنسانية والتعاطف والتراحم والتواصل، بدلا من الأنانية والتقاطع والتهاresh والتقاتل، شعارهما (نفسى وأخى)، بل أخى قبل

نفسى، لا نفسى نفسى)، والزكاة هي دعامة الإخاء والوئام بين الإخوة المؤمنين، والحق الأول من حقوق المعسرین على الموسرین⁽⁷⁷⁾.

• ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۗ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد: 7]، قال ابن عطية: "هذه الآية تجمع الزكاة والتطوع، فالزكاة واجبة، والتطوع مندوب عليه، وظاهر هذه الآية أنها مراد بها جميع وجوه البر"⁽⁷⁸⁾، ولا شك أن في الانفاق تحرير للإنسان من عبودية المال وسيطرته على النفس، فإذا تمكن الإنسان من مقاومة سلطان المال والشح هان عليه الإنفاق، وقام بهذه الفريضة التي تكفل تحقيق التضامن الاجتماعي بين الغني والفقير، "والحال أن المسلمين لو حرصوا على تنفيذ نظام الإسلام المحكم فيما يتعلق بإخراج الزكاة لساد بينهم التآلف والتعاون والتراحم والتواصل مما يسعد حالهم ويعلي شأنهم وينزع من صدور فقرائهم غل البغضاء وأضغان الشرور"⁽⁷⁹⁾.

- ومن الآيات التي دعت إلى قيمة الإحصان والعفاف

• ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّئَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: 32]، بين تعالى قبح فاحشة الزنى بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ والفاحشة: هي الرذيلة التي تجاوزت الحد في القبح⁽⁸⁰⁾. وقد بين الحق سبحانه وتعالى سوء عاقبة الزنى بقوله: ﴿ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ أي بئس طريقا طريقه، طريق مؤد إلى شرور ومفاسد كثيرة في الدنيا، وعذاب عظيم في الآخرة، فهو طريق إلى هلاك الأبدان، وفساد الأعراض، وضياع الأموال وخراب البيوت وانقطاع الأنساب، وفساد المجتمع وانقراضه، زيادة على ما فيه من معنى القتل للنفس⁽⁸¹⁾. وقد جاءت سورة النور ﴿ الرِّئَا وَالرِّئَا فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۗ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: 2]، "لتضع النقط على الحروف، وتبين آياتها البينات أسس التربية والخلقية النظيفة، التي يجب أن يقوم عليها المجتمع الإسلامي والأسرة المسلمة، بصفتها الخلية الأولى وحجر الزاوية في بناء ذلك المجتمع، حتى يقضى على الخصال الجاهلية، والمفاهيم الوثنية غير الأخلاقية، وهكذا أشهرت سورة النور الحرب على الزنى وما ألحق به، سواء كان عن طواعية أو إكراه، وحددت طريقة الزواج المشروع"⁽⁸²⁾.

- ومن الآيات الآمرة بقيمتي العفو وكظم الغيظ

• ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134]، تجدد الآيات الكريمة حديثها عن معاملة المؤمنين فيما بينهم، فتصنفهم بأوصافهم الكاشفة، وسماتهم المميزة، حتى يتمكن من يريد اللحاق بركبهم والانتماء إليهم، من السلوك على نهجهم، والسير في طريقهم⁽⁸³⁾، ومن هنا يحدد القرآن الكريم صفات المؤمن بكونه هو الذي يعفو عن الناس، ويلجم غضبه رغم قدرته عليه، و"العفو من صفة الله مع القدرة على الانتقام"⁽⁸⁴⁾، وبذلك يتفادى المؤمن كل مظاهر الغيظ وآثار الغضب، ولا شك أن "أقوى القوى تأثيراً على النفس القوة الغاضبة فتشتهي إظهار آثار الغضب، فإذا استطاع إمساك مظاهرها، مع الامتلاء منها، دل ذلك على عزيمة راسخة في النفس، وقهر الإرادة للشهوة، وهذا من أكبر قوى الأخلاق الفاضلة"⁽⁸⁵⁾.

- ومن الآيات الآمرة بقيمة الإحسان في القول والعمل

• ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 82]، وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: 53]، ذكرت الآيات الكريمة الآداب السامية والأخلاق الاجتماعية التي يجب أن يلتزمها المسلمون في معاملة بعضهم لبعض، منبهة إلى وجوب الإحسان في القول، وعدم الولوج في أعراض الآخرين، أو السخرية والاستهزاء بهم، فإذا حسن الكلام "قويت روابط الألفة، وتمكنت أسباب المحبة، وامتد رواق السلام بين الأفراد والعشائر والأمم، وتقاربت العقول والقلوب بالتفاهم، وتشابكت الأيدي على التعاون والتآزر، وحنى العالم من وراء ذلك الأمن واطراد العمران"⁽⁸⁶⁾.

- الآيات الآمرة بقيمتي الاستقامة والوفاء بالعهود.

• ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: 112]. وهذه دعوة صريحة إلى المسارعة إلى إصلاح النفس بالتوبة والإنابة، لأن النفس الإنسانية إذا صلحت صلح الفرد، وصلاح الفرد هو صلاح المجتمع، وإذا صلح المجتمع عم الخير والعدل والتكافل وكل ما شرعه الله تعالى لعباده، وبتعطلها وفسادها يختل نظام الاجتماع ويعود إلى الانحلال والباطل والظلم والسوء

الذي نهي الله عنه.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ يُعَلِّمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: 91]، الوفاء بالعهد "فضيلة فردية وهي عنوان كمال النفس، وفضيلة اجتماعية وهي ثقة الناس بعضهم ببعض"⁽⁸⁷⁾. وإن العهد الذي يأمر الله بالوفاء به هو كل عهد فيه صلاح الناس وانتظام معاشهم ومعادهم، والوفاء بالعهد أمر اعتنى به كتاب الله لما يترتب عنه من نشر الثقة بين الناس ومن تيسير معاملاتهم وانتظامها، لذلك أمر الله عباده بألا تنتقض العهود والمواثيق لأن فيها قوة الأمة وازدهارها، وقد ذكر كتاب الله "أن ذاك النقص مؤد إلى انحدار الأمة وارتكاسها بعد قوتها وتماسكها وقد صور ذلك بزلل القدم وانزلاقها بعد أن كانت ثابتة راسخة، والزلل الذي يقع للأمة هو ترديها إلى حال الضعف بعد القوة"⁽⁸⁸⁾.

– الآيات الآمرة بقيمة الشورى.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: 35]، إن نظام الشورى قيمة من القيم الاجتماعية الكبرى في المنهج القرآني، ولهذا نرى حرص الإسلام البالغ على تطبيقها بالجمتمع، باعتبارها من أهم العوامل المساهمة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية للأمم والشعوب، وقد "أراد الله أن يسن للأمة الإسلامية من بعد رسولها سنة قائمة، هي مفتاح نجاحها، وعنوان فلاحها أمد الدهر، ألا وهي شورى المسلمين في أمورهم، وجعل أمرهم شورى بينهم، وهذا ورسول الله معصوم عن الخطأ، ومعصوم من الناس، ولكن الله أمره بالشورى لتكون سنة للمسلمين من بعده، حتى يعالجوا شؤونهم في جو من الوفاق والوئام، لا اختلاف بعده ولا اصطدام، ولا فرقة من ورائه ولا انقسام"⁽⁸⁹⁾، وذلك قوله تعالى: ﴿شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران 159].

خاتمة

إن المتدبر للتراث التفسيري الضخم يجده حافلا بثروة ضخمة من المصطلحات والمفاهيم ذات أبعاد قيمية، ويدرك أن رسالة القرآن الكريم الأساسية هي هداية وإصلاح الفرد كي يكون صالحاً مهياً للاندماج في الجماعة، لذا جعل القرآن مبدأ إصلاح منظومة القيم الأخلاقية محور

دعوته، وقد تضافرت آياته على الأمر بالتخلق بالأخلاق الحسنة، ونصت على الكثير منها في مواضع شتى في كتاب الله، لجعل المجتمع الإسلامي وحدة متماسكة، وكتلة مرتبطة فيما بينها، تجمعها رابطة العقيدة، فكان هم إصلاح منظومة القيم الإنسانية حاضرا عند مفسري القرآن الكريم أثناء وقوفهم على الآيات ذات الصلة بالبعد القيمي والأخلاقي، مما دفعهم إلى التنبيه إلى مضامينها، والبحث في إشاراتها ودلالاتها العامة حتى تنسجم مع مقاصد الشريعة الإجمالية، إذ لا تكاد تخلو صفحة من تفاسيرهم من ترديد لمصطلحات ذات مدلولات قيمية.

وإن القيم الأخلاقية التي تحاول النظريات الأخلاقية الحديثة اليوم، أن تخص بها نفسها، ما هي إلا مبادئ وأخلاق المنهج القرآني، وآثار قيمه الفردية والجماعية، وقف عليها علماء التفسير بالدراسة والتحليل، فاستنبطوا لنا منها منظومة قيمية هائلة، أبرزت نماذج من القيم الاجتماعية الإيجابية التي أمر الله سبحانه بها، والتي تتمثل في قيم: العدل، الشورى، الإحسان، الأمانة، العفو، الصدق... ونماذج من القيم الاجتماعية السلبية التي نهي عنها الباري عز وجل الظلم، الخيانة، الغش، الحقد، الغيبة، الزنا... وقد تأثرت بها الإنسانية، عبر مسيرتها التربوية والأخلاقية.

الهوامش:

- (1) - منظومة القيم القرآنية في المجال الكلامي والأخلاقي، أحمد بن سعود السليبي، مجلة جامعة القدس للأبحاث والدراسات، العدد 25، شتبر 2011م، ص58-59.
- (2) - لسان العرب، ابن منظور، 12/500.
- (3) - المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي البخار، مطبعة دار الدعوة، تركيا، 1989م، 767/2.
- (4) - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، تحقيق عبد العظيم الشناوي، المكتبة العلمية، بيروت، ط2، 2010م، ص269.
- (5) - القاموس المحيط، الفيروز آبادي، 4/170.
- (6) - مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، بيروت، ط2، 1418هـ/1997م، ص69.
- (7) - التطور القيمي وتنمية المجتمعات الدينية، محمد إبراهيم كاظم، المجلة الاجتماعية القومية، القاهرة، 1971م، ص111.
- (8) - السلفية وقضايا العصر، عبد الرحمان بن زيد الزنبيدي، مركز الدراسات والإعلام دار إشبيلية، الرياض، ط1، 1418هـ/1998م، ص462.
- (9) - الثقافة الإسلامية: تخصصا ومادة وقسما علميا، عبد الله بن إبراهيم الطريقي، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط1، 1417هـ، ص14.
- (10) - علم النفس الاجتماعي، حامد زهران، عالم الكتب، القاهرة، ط5، 1984، ص132.
- (11) - القيم الإسلامية والتربية، علي خليل مصطفى أبو العينين، مكتبة إبراهيم حلي، المدينة المنورة، ط1، 1408هـ/1988م، ص10.
- (12) - المنهج القرآني في تربية القيم الأخلاقية والاجتماعية، أحمد الزباخ، ص27.
- (13) - المدخل إلى علم الاجتماع، أحمد طاهر مسعود، ص154.

- (14) - مدونة القيم في القرآن والسنة، محمد بالبشير الحسني، مطبعة طوب بريس، الرباط، ط1، 2008م، ص24.
- (15) - المجتمع الإسلامي، منطلقاته وأهدافه، محمد تقي المدرسي، دار الجبل، بيروت، ط1، 1982م، ص66.
- (16) - المنهج القرآني في تربية القيم الأخلاقية والاجتماعية، أحمد الزياح، ص50.
- (17) - القيم الإسلامية والتربية، علي خليل مصطفى أبو العينين، ص10.
- (18) - المنهج القرآني في تربية القيم الأخلاقية والاجتماعية، أحمد الزياح، ص264-265.
- (19) - المرجع نفسه، ص135.
- (20) - منظومة القيم القرآنية في المجال الكلامي والأخلاقي، أحمد بن سعود السيابي، ص16-17.
- (21) - تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية، محمد مهران رشوان، دار قباء للطباعة والتوزيع، القاهرة، 1998م، ص32.
- (22) - الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، 227/18.
- (23) - أخرجه الإمام أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، حديث رقم 8729.
- (24) - الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، 227/18.
- (25) - التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، علي علي صبح، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، دت، ص266.
- (26) - أحكام القرآن، أبي بكر بن العربي المعافري، 495/4.
- (27) - الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، 55/9.
- (28) - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن عطية، 438/3.
- (29) - البحر المحيط، أبي حيان الأندلسي، 239/5.
- (30) - الفعل الحضاري في القرآن الكريم، محمد زمران، دار الكتاب الثقافي، 1430هـ/2009م، ص20.
- (31) - مفهوم الإنسان في الفكر الإسلامي، عمر التومي الشيباني، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، 1987م، ص165-166.
- (32) - مقدمة ابن خلدون، ص41-42.
- (33) - المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، مادة (إنس)، ص94.
- (34) - التيسير في أحاديث التفسير، الشيخ محمد المكي الناصري، 390/3.
- (35) - ابن حزم وموقفه من الفلسفة والمنطق والأخلاق، وديع واصف مصطفى، ص303.
- (36) - المرجع نفسه، ص301.
- (37) - الفعل الحضاري في القرآن الكريم، محمد زمران، دار الكتاب الثقافي، 1430هـ/2009م، ص19.
- (38) - الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمان حسن حنكة الميداني، دار القلم، دمشق، سوريا، ط4، 1417هـ/1996م، ص56/1.
- (39) - معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، مادة خ-ل-ق، 214/2.
- (40) - تهذيب الأخلاق، الجاحظ، قرأه وعلق عليه أبو حذيفة إبراهيم بن محمد، دار الصحابة للتراث، 1410هـ/1989م، ص14.
- (41) - الفوائد، لابن قيم الجوزية (ت751هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، ط2، 1393هـ/1973م، 143/1.
- (42) - المرجع نفسه، ص140-139.
- (43) - المنهاج القرآني في التشريع، عبد الستار فتح الله سعيد، رسالة دكتوراه قدمت جامعة الأزهر كلية أصول الدين تخصص التفسير والحديث، مصر، ط1، 1413هـ/1992م، ص407.
- (44) - منهج القرآن في إصلاح المجتمع، محمد السيد يوسف، ص569.
- (45) - التداول الحضاري في القرآن الكريم، فرج أحمد الرفاعي سالم علام، دار روابط للنشر وتقنية المعلومات، مصر، ط1، 1437هـ/2016م، ص176.
- (46) - الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمان حسن حنكة الميداني، 34-33/1.
- (47) - القيم الأخلاقية، عادل العوا، مطبعة جامعة دمشق، دت، ص38.
- (48) - التربية الأخلاقية الإسلامية، مقاد بالجن، ص75.
- (49) - أصول النظام الاجتماعي، الطاهر بن عاشور، ص120.
- (50) - المنهج القرآني في تربية القيم الأخلاقية والاجتماعية، أحمد الزياح، ص35.
- (51) - موسوعة الأخلاق الإسلامية، إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ غلوي بن عبد القادر السقايف، الناشر: موقع الدرر السنية على الإنترنت dorar.net، عدد الأجزاء: 3، تم تحميله في ربيع الأول 1433هـ، ص5.
- (52) - فهرسة ابن خير الإشبيلي، أبو بكر محمد بن خير الأموي الإشبيلي، المحقق: محمد فؤاد منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ/1998م، ص569.
- (53) - موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، إعداد مجموعة من المختصين بإشراف صالح بن عبد الله إمام وخطيب الحرم المكي، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، ط1، جدة، 1418هـ/1998م، 156/1.
- (54) - علم الأخلاق الإسلامية، مقاد بالجن محمد علي، دار عالم الكتب للطباعة والنشر، الرياض، ط2، 1424هـ/2003م، ص53.
- (55) - مقاربات في المسألة الأخلاقية، مصطفى بن حمزة، مطبعة الأمنية، الرباط، 2019م، ص103.
- (56) - منهج القرآن في إصلاح المجتمع، محمد السيد يوسف، ص20، بتصرف.
- (57) - التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مج 7، 189/15-190.

- (58) - ابن حزم وموقفه من الفلسفة والمنطق والأخلاق، وديع واصف مصطفى، ص304.
- (59) - المرجع نفسه، ص311-312.
- (60) - أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، ص90.
- (61) - تفسير ابن باديس أو مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، الشيخ عبد الحميد بن باديس، مج1/356.
- (62) - التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مج 8، 12/18.
- (63) - المرجع نفسه، مج 2، 49/2.
- (64) - أخرجه الإمام أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، حديث رقم 8729.
- (65) - التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مج 15، 370/30.
- (66) - الجامع لأحكام القرآن، أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، 322/10.
- (67) - تفسير ابن باديس أو مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، الشيخ عبد الحميد بن باديس، 277/1.
- (68) - تفسير ابن باديس أو مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، الشيخ عبد الحميد بن باديس، 207/1.
- (69) - المرجع نفسه، 208-207/1.
- (70) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم 52. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم 1599.
- (71) - موسوعة مصطلحات الإمام الغزالي، رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت - لبنان، ط1، 2000م، ص155.
- (72) - تفسير ابن باديس أو مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، الشيخ عبد الحميد بن باديس، مج1/114.
- (73) - أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الطاهر بن عاشور، ص117.
- (74) - أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، ص78.
- (75) - هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقاً، محمود محمد الخزندار، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 1417هـ/1997م، ص20.
- (76) - تفسير ابن باديس أو مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، الشيخ عبد الحميد بن باديس، مج1/218.
- (77) - التيسير في أحاديث التفسير، الشيخ محمد المكي الناصري، 181/4.
- (78) - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، 277/2.
- (79) - القيم الروحية في الإسلام، محمد حلمي عبد الوهاب، روافد، الإصدار 49، الكويت، صفر 1433هـ/يناير 2012م، ص70.
- (80) - تفسير ابن باديس أو مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، الشيخ عبد الحميد بن باديس، مج1/245.
- (81) - المرجع نفسه.
- (82) - التيسير في أحاديث التفسير، الشيخ محمد المكي الناصري، 246/4.
- (83) - التيسير في أحاديث التفسير، الشيخ محمد المكي الناصري، 265/1.
- (84) - الجامع لأحكام القرآن، أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، 5/3.
- (85) - التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، 91/4.
- (86) - تفسير ابن باديس أو مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، الشيخ عبد الحميد بن باديس، مج1/286.
- (87) - التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مج 2، 132/2.
- (88) - الوجيز في تفسير آي الكتاب العزيز، د. مصطفى بن حمزة، ص 227.
- (89) - التيسير في أحاديث التفسير، الشيخ محمد المكي الناصري، 280/1.